بدعة المحاريب

[ننشر هذا البحث القيم غير محتملين شيئاً من تبعاته الفنية والتاريخية والدينية أيضاً . و نعتقد أن المختصين خليقون بأن يتعقبوه بالنقد والتمحيص .]

١

تحتفظ دار الكتب المصرية ، فيما تحتفظ به من نفائس الكتب والآثار ، بمخطوط غريب أسماه مؤلفه « كتاب إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب » . والكتيب أو الرسالة وريقات معدودات ، كتبها ناقلها بخط حسن مقروء ، وأدخلها فى مجموعة من الرسائل المنسوبة إلى عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين السيوطى ، صاحب « تاريخ الخلفاء » ، و « تفسير الجلالين » ، و « حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » . وهى مصنفات شهيرة لعالم جليل ، ومؤرخ واسع الاطلاع . كان مولده بمصر سنة تسع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٥) ، وكانت وفاته سنة إحدى عشرة وتسعمائة (١٥٠٥) . وقد يسر علينا السيوطى نفسه سبيل البحث عنه ، والتفتيش عن أعماله ، فأورد فى كتابه « حسن المحاضرة » كشفاً بمصنفاته ، وذكر لنا أنها بلغت ثلاثمائة كتاب « سوى ماغسله ورجع عنه » ، وأنه كتب فى فنون التفسير والفقه والحديث وتعلقاتها ، وفى فنون العربية والأصول والبيان والتصوف والتاريخ والأدب ، وأنه كتب إلى هذا فى « مسائل مخصوصة » منها رسالة فى « تحريم الاشتغال بالمنطق » ، وأخرى عنوانها « أنموذج اللبيب إلى خصائص الحبيب » ، وثالثة فى « فصل الخطاب فى قتل الكلاب » . ولم يذكر لنا السيوطى أنه كتب رسالة بالعنوان الذى يحمله مخطوط دار الكتب ، أو أنه شغل بموضوع المحاريب مثل ما شغل بتحريم المنطق ، عملا بفتوة سمعها من ابن الصلاح . ولهذا فإنى أشك فى صحة انتساب هذه الرسالة إليه بالرغم

مما انطبع فيها من مظاهر أسلوبه وتفكيره ، غير أنى سأتمهل فى الرفض وأنظر فى موضوعها .

الرسالة بحث فى موضوع حديث يُعزى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وللحديث ، كما نقله السيوطى ، نصان : النص الأول «اتقوا هذه المذابح» ، والنص الآخر « لا تزال هذه الأمة — أو قال أمتى — بخير ما لم يتخذوا فى مساجدهم مذابح كمذابح النصارى » . وحاول السيوطى جهده أن يثبت صحة سند هذا الحديث ، ونقل فى ذلك أحاديث أخرى عن قوم من الأوائل ، قال البعض فيها إنه لم يكن بمسجد المدينة محراب قط على عهد الرسول ، ولا فى زمان الخلفاء الأربعة ، وأورد البعض الآخر أن المحاريب من شأن الكنائس ، وأن اتخاذها فى المساجد من أشراط الساعة ، وأخرج أحدهم عن على بن أبى طالب أنه كره الصلاة فى « الطاق » . وأجمعوا كلهم على ذكر « المذابح » ، وهم فى ذلك يقصدون « ما أخرجه عبد الرازق فى (المصنف) عن كعب قال : يكون فى آخر الزمان قوم يزينون مساجد ، ويتخذون مذابح كمذابح النصارى ، فان فعلوا ذلك صب عليهم البلاء » .

حديث السيوطى ينصب إذن على المذابح ، لا على المحاريب ، أو إنه فسر هذه بتلك ، وجعل منها عنوان رسالته . وفى الأحاديث علماء ، ولست أشك فى أنهم لا يترددون فى إسقاط حديث السيوطى ، معنى وتركيباً وسنداً . والذى أجزم به ، على كل حال ، هو أن رسالة السيوطى مرفوضة علما ، مستنكرة تاريخا حتى لو كانت مخطوطة بيده . إذ لا يستطيع المؤرخ ، مهما بلغت حماسته فى الرأى أو مقدرته على الاستنباط أن يعترف برواية نقلها الراوى بعد تسعة قرون طويلة من تاريخ حدوثها ، مهما أضفى عليها راويها من صحة المظهر واستقامة المعنى . وماذا تقول فى راو يطلع علينا اليوم ، من غير مرجع أو سند صحيح بحديث مبتكر عن المستنصر العبيدى خليفة الفاطميين فى مصر ، أو بقصة مطوية عن القائم بأمر الله ، خليفة العباسيين فى بغداد ، أو برواية منسوبة إلى السلطان ملكشاه السلجوقى ، وكانوا جميعاً أحياء منذ تسعمائة سنة ؟

والأمر شبيه بهذا فى حديث السيوطى ؛ فانه لم يأت بذكره راو من رواة الأحاديث ، ولم ينقله قبله مؤرخ من مؤرخى الإسلام . وإذا كان العلماء

يرمون بالشك أحاديث كثيرة من أحاديث البخارى ، مع ما نعرفه عنه من دقة البحث ، وقرب العهد ، نسبياً ، بالرسول — إذ عاش بعده بمائتى سنة — أليس حديث السيوطى أولى بالشك وأبعد عن التصديق ؟

والذى ذكره رواة الأحاديث وعلماء الفقه قبل السيوطى لا ينصب على المحاريب ، فلم يتعرضوا لها بخير ولا بشر ، وإنما كرهوا زينتها ، حتى لا يشغل الإمام بها عن الصلاة . فقد ذكر ابن الحج فى « المدخل » نهياً عن زخرفة المحراب ، وقال إن ذلك من البدع ومن « أشراط الساعة » ، ونقل عن الطرطوشى عن الإمام مالك أنه كره ما كانوا يعلقونه من خرق كسوة الكعبة فى المحراب وغيره ، فإن ذلك كله من البدع « لأنه لم يكن من فعل من مضى » .

وذكر كثير من العلماء الذى سبقوا السيوطى ، أمثال الكاشانى ، وقاضى خان ، والزيلعى . والطرابلسى ، ما يدل على أن المحاريب كانت شائعة فى مساجد الإسلام ، وأنه لم يكن هنالك من حظر فى بنائها ، أو نهى عن استعمالها . بل إنهم أجمعوا على ذكر محاريب نصبها الصحابة فى القرى والأمصار التى فتحوها ، وإن كانوا لم يبينوا لنا أشكالها . إلا أنهم أوصوا باعتبارها دلائل لتعيين القبلة والتوجه فى الصلاة .

وبالرغم من هذا ، فقد تعلق كثير من المستشرقين وعلماء الآثار بحديث السيوطى ، وأولوه ثقتهم ، وقالوا معه ، أو على الأصح محتجين به ، إن المحراب بدعة ، وإنه من عمل الكنائس . أما الشق الأول مما ينادى به المستشرقون فيكاد الإجماع ينعقد عليه ، وحديث السيوطى لايغنى فى ذلك قليلا ولا كثيراً . وقد جاء فى رحلة ابن بطوطة أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان هو الذى صنع المحراب لمسجد المدينة ، وأضاف ابن بطوطة إلى ذلك أنه « قيل إن مروان هو أول من بنى المحراب ، وقيل عمر بن عبد العزيز فى خلافة الوليد » : غير أن المقدسى والسمهودى ، وغيرهما من المؤرخين ، قالوا إنه لما تولى عمر بن عبد العزيز بناء مسجد المدينة « وبلغ هدم المحراب دعا بمشايخ المهاجرين والأنصار فقال احضروا بنيان قبلتكم ، لا تقولوا غيَّرها ، فجعل لا ينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً » . وفى هذا بعض الدلالة على أنه كان بالمسجد محراب قبل ذلك . ويقول السمهودى فى وصفه الشامل وتحليله الدقيق لمسجد المدينة فى كتابه « خلاصة

الوفى » إنه كان بجدار القبلة « إزار رخام مخلق بخلق ، فيه الوتد الذى كان صلى الله عليه وسلم يتوكأ عليه فى المحراب الأول » . فكأنه يدلنا على أنه كان بمسجد المدينة محراب على حياة الرسول . أما فى غير هذا المسجد ، فقد ذكر الكندى وابن عبد الحكم وغيرهما من المؤرخين القدماء أنه « لم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وإنما قرة بن شريك جعل المحراب المجوف » . وقرة بن شريك ولى إمرة مصر بين ربيع الأول سنة تسعين (يناير ٧٠٩) وربيع الأول سنة ست وتسعين (ديسمبر ٧١٤) ، وكان عمر بن عبد العزيز قبيل ذلك عاملا على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك ، ولاه سنة ست وثمانين (٧٠٥) وعزله سنة ثلاث وتسعين (٧١١) . وقد أخذ العلماء برأى غالبية المؤرخين ، وأجمعوا على الحكم بأنه لم يكن لمسجد من مساجد الإسلام محراب مجوف قبل سنة سبع وثمانين للهجرة . غير أنى أرانى مضطراً إلى الخروج على هذا الاجماع ، فهناك أثر ثابت ، قد تحققت حديثاً من وجوده ، ولا سبيل إلى الطعن بعد اليوم فى صحته ، وهو يناقض هذا الرأى الأخير .

والواقع أن مؤرخى العرب لم ينكروا إطلاقاً وجود المحاريب قبل سنة سبع وثمانين فى غير مسجدى الرسول بالمدينة ومسجد عمرو بالفسطاط . بل إنا قد رأيناهم يترددون فيما يتصل بمسجد المدينة ، واختلف رأيهم فى محرابه ، فقال أحدهم : كان للرسول محراب فى ذلك المسجد ، وقال آخر إن عثمان هو أول من جعل له محراباً . ثم إنهم لم يتحدثوا عن المساجد الاولى فى الإسلام ، فلا نعرف من رواياتهم إذا كان المحراب قد أدخل فى بناء مساجد البصرة والكوفة وزمام ، ولكننا نعرف على كل حال أنه كان فى نظام مسجد القيروان ، وهو الذى أقامه عقبة بن نافع سنة خمسين (٦٧٠) .

حدثنا كثير من المؤرخين عن تاريخ بناء مسجد القيروان ، وذكروا كيف أن عقبة بن نافع بدأ ينشئ هذه البلدة بعد دخوله إفريقية ، وكيف اختط فيها دار العمارة والمسجد الأعظم . وذكروا أن الناس كانوا يصلون فى المسجد قبل أن يحدث فيه بناء ، وأن أمرهم اختلف فى القبلة . وقيل إن آتياً أتى عقبة فى منامه ، وأن صوتاً من عند الله أسمعه أين يضع محرابه من المسجد ، وتناقل الناس هذا الحديث إلى اليوم ، وإليه يرجع ما يحملونه من الإجلال للرجل

ولمسجده . ذكر هذا جمهرة من المؤرخين من بينهم ابن عذارى والنويرى وابن خلدون وابن حوقل والبكرى . ولا شك أن ما نقله عبيد الله البكرى هذا عن القيروان هو أصدق صورة وضعت عن تاريخ هـذه المدينة ، وكتابه عن المغرب مشهور ، والثقة به عظيمة . وإن يكن وصفه للجامع غير شامل ، فهو وصف دقيق ، يسهل تحقيقه ومراجعته . وإن يكن البكرى قد عاش فى النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى ، فقد نقل كثيراً من أخباره عن أصدق ماروواه المؤرخون السابقون ، وأكثرهم ثقة بالرواية . وقد أثبت البحث العلمى الحديث ، كما أثبتت المقارنة التاريخيـة ودل التحقيق الأثرى ، على أنه لا مجال للشك فيما نقله البكرى إلينا من تاريخ المغرب والقيروان .

يحدثنا البكرى أن عقبة بن نافع أقام مسجده وأقام محرابه ، وأن حسان ابن النعمان هدم هـذا المسجد وشيد عليه بناء جديداً ، وكان ذلك بين سنتى ثمان وسبعين وثلاث وثمانين (٦٩٣ — ٦٩٧م) ، ويحدثنا أن بشر بن صفوان زاد فى هذا المسجد زيادة كبيرة سنة خمس ومائة (٧٢٤) ، وأن يزيد بن حاتم هدم المسجد مرة ثانية وبناه من جديد ، لما ولى إفريقية سنة خمس وخمسين ومائة (٧٧٢) . ويؤكد لنـا البكرى أن جميع هؤلاء الولاة والبناة لم يمسوا محراب عقبة ، وأنهم تركوه على ما كان عليه حتى كانت سـنة إحدى وعشرين ومائتين (٨٣٦) . فى تلك السنة ولى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إمرة إفريقية ، وهدم جامع القيروان كله ، ثم أراد أن يهدم المحراب فلم يجبه أحد إلى ما أراد . فألح فى ذلك ، ولـكنه حيل بينه وبين هدمه ، ويقول البكرى ، منعه الناس من المساس بالمحراب « لما كان قد وضعه عقبة بن نافع ومن كان معه » . فقد كان هـذا المحراب ، كما قرأنا ، موضع إجلال القوم وتقديسهم ، وكانوا إلى عهد زيادة الله ، مازالوا يتناقلون حديث الوحى الذى أبان لعقبة موقع محرابه من المسـجد . ويروى البكرى أن صانعاً ذا حيلة من الصناع ، تقدم بعدئذ إلى زيادة الله برأى يوفق بين رغبته فى بنـاء محراب جديد ، وبين إجماع القوم على الاحتفاظ بمحراب عقبة ، وأن هذا الصانع صنع لأميره حلية من لوحات الرخام المنقوش المخرم ، وألصق هذه اللوحات على جدار المحراب القديم ، فبدا فى ثوب بديع قشيب ، ولم يصب محراب عقبة بسوء .

وقد كنا نستطيع أن نقنع بهذه الحجة ، فان فى رواية البكرى هذه من الثقة والاستقامة ما يفتقر إليه حديث السيوطى ، وما يغنينا عن استزادة الإيضاح . ولكننا نفند آراء معمارية ، فلندع العناصر المعمارية نفسها تحاج وتتكلم ؛ لأن محراب عقبة هذا ما زال كما قال البكرى منذ تسعمائة سنة ، قائماً « على بنائه إلى اليوم » . وإنا لنراه من بين خروم لوحات الرخام التى صنعها الصانع النبيه فى عهد زيادة الله ، وكسا بها جدران ذلك المحراب المبحل .

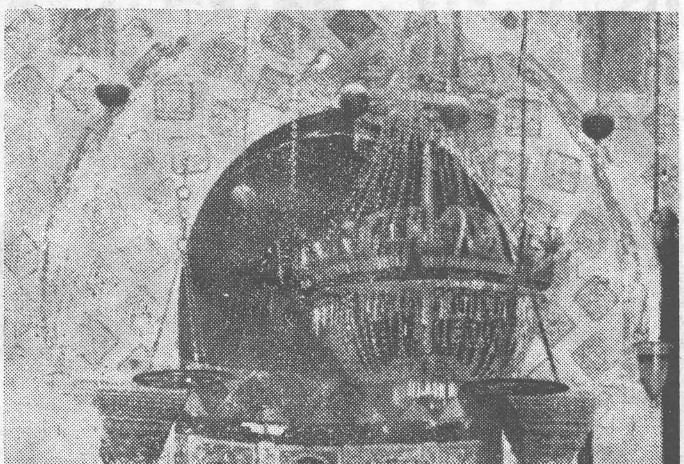

محراب مسجد القيروان (سنة ٢٢١ هـ - ٨٣٦ م)

يرى الناظر خلال هذه الخروم أنها تخفى من ورائها جدارا مقوساً . على هيئة جوفة فى جدار القبلة ، غير أن الفراغ الضيق الذى يلمحه الناظر من ثنايا

هـذا الجدار يحول دون تبين شكله كاملا . ولهذا لم يشأ أحد من المشتغلين بالآثار أن يعترف بطبيعة هذا المحراب المجوف العتيق ، وادعى أحدهم أن قيام هذا الجدار ، أو هذه الجوفة أمر طبيعي ، إذ أن لوحات الرخام المخرم تتطلب إيجاد فراغ من خلفها حتى تظهر نقوشها ، وقال إن هذا الاحتيال البسيط ، أدى إلى نشأة أسطورة المحراب ، وإلى اختلاق القوم لحديث محراب عقبة .

تفصيل من اللوحات الرخامية بمحراب مسجد القيروان

ولهذا لم أر بدا من العودة إلى القيروان ، وقمت منذ ثمانية أعوام بدراسة هذا المحراب دراسة جديدة وافية . وقدم لى أصدقائى التونسيون معاونة جليلة أذكرها لهم هنا بالشكر والتقدير ، وقمت بنقر جدار القبلة فى المسجد فى

مواضع مختلفة ، وأزلت طبقات الجير التى تكسوه فى مواضع أخرى ، وتبين لى بصفة قاطعة أنه بنى من حجارة كبيرة منتظمة القطع ، تطابق فى استطالتها وفى استوائها وفى حجمها وفى رصها نوع الحجارة التى بنيت منها مئذنة المسجد فى الجزء الأوسط من برجها . وقد أجمع المؤرخون وعلماء الآثار على أن هذه المئذنة أقيمت سنة خمس ومائة ، أثناء ولاية بشر بن صفوان ، عامل الخليفة هشام بن عبد الملك .

أما جدار المحراب فكان أبعد منى منالا ، وكانت عملية تحقيقه أدق سبيلا ، ولم يكن انتزاع لوحات الرخام بالأمر اليسير الهين ، فاكتفيت بلوحتين متباعدتين وتحايلنا على نزعهما من موضعيهما فى حيطة بالغة وحذر شديد . فبدا لنا جدار المحراب مكسوا بطبقة كثيفة من التراب ، قاتمة اللون ، عطنة الرائحة ، وأسرعنا فنقرنا نقرات هينة وأزلنا بعضاً من الغلاف الجيرى ، فتبين لنا أن حائط المحراب هذا قد صنع طرف فيه من قطع من حجارة منبعجة ، لا استواء فيها ولا اعتدال ، وأنه فى طرف آخر ، قد رصت فيه قطع منتظمة من الآجر ، وأنه فى بنيانه وفى مظهره وفى تكوينه لا يتصل بجدار القبلة طبيعة ولا زمنا .

لا شك فى أن جوفة محراب القيروان أقيمت فى غير السنة التى أقيم فيها جدار قبلته أيام بشر بن صفوان . ولا شك فى أن هذه الجوفة شيدت فى غير الوقت الذى أمر فيه زيادة الله ببناء المحراب الجديد ؛ فان عناصر بنائها تنفى القول بوحدتهما الزمنية . وقد ذكر أبو عبيد الله البكرى أن زيادة الله قد أولى محرابه وقبته التى تليه كل عناية ، وأنه حرص على أن تكون موادها ثمينة وصناعتها بديعة ؛ والأمر عكس ذلك فى بناء هذه الجوفة ، فهى غليظة المظهر والعنصر ، وهذا وحده يكفى للدلالة على أن هذه الجوفة لا تنتمى إلى عصر زيادة الله ، ولا بد أن تكون أقدم من ذلك عهداً .

وقيل إن هذه الجوفة شيدت خلف لوحات الرخام لتكون هذه لتلك ستاراً يزداد بها بيان نقوش اللوحات وضوحاً وإبداعاً . ولو أن الأمر كان كذلك لروعى أن يكون بناؤها منتظماً ، وأن يكون بينها وبين اللوحات فراغ فاصل متسع ، والحال على عكس ذلك أيضاً ؛ فسطح هذه الجوفة يقترب من لوحات الرخام حتى لمسها فى مواضع عديدة ، فالنظر فيها لا يخترق خرومها ، والهواء

لا يمرح ولا ينفذ فى فضائها ، وأنت ترى اللوحات لا تتدلى أمام هذه الجوفة فى خفة ورشاقة ، فهذه عائق لوضوح جمال تلك اللوحات ، وليست وسيلة إلى إظهاره . ولا شك عندى فى أن هذا الحائط الغليظ لم يشيد خصيصاً ليكون ستاراً لهذه المنسوجات الرخامية البديعة .

كان هذا الحائط قائماً ، وكان هذه الجوفة مشيدة ، فاضيفت إليها لوحات الرخام فى عصر زيادة الله ، وكان ذلك وسيلة لأحد البناة توصل بها إلى إرضاء رغبة الأمير ، وإلى الإبقاء على اعتقادات قومه ، فاحتفظ بمحراب عقبة ، وقال لزيادة الله : « أنا أدخله بين حائطين ولا يظهر فى الجامع أثر لغيرك . »

ولسنا نحتاج إلى حجة بعد هذا لدعم هذه الحقيقة ، ولكنى أضيف إلى كل هذا حقيقة أخرى . ذلك أن القبلة ، التى هى موضع المحراب ، عنصر رئيسى من شكل المسجد وتخطيطه . فهذا الموضع يتحدد به اتجاه جدار القبلة ويجب أن يكون هذا الاتجاه عموديا على خط يصل القبلة إلى مكة . وكان يرجى أن يكون هذا هو الواقع فى مسجد القيروان ، إلا أن اتجاه القبلة فى هذا المسجد منحرف إلى الغرب بضع درجات . وقد أخطأ أصحاب عقبة فى تحديد شطرها ، إذ لم يكونوا قد بلغوا من العلم ما يؤهلهم لدقة تحديد الجهات . وقد ذكر المؤرخون أن هؤلاء الأصحاب اختلف أمرهم فى القبلة ، ولم يحسم خلافهم إلا ما أعلنهم عقبة به من أن صوتاً من عند الله عين له موضع المحراب . ولو أن تحديد هذه القبلة وتخطيط حائط المحراب يرجع عهدهما إلى خلفاء عقبة فى القيروان ، لكان أولئك الخلفاء أكثر دقة فى ذلك من أصحاب عقبة ، وأشد تحقيقاً ، ولما كانت القبلة على ما هى عليه اليوم من الانحراف عن شطر المسجد الحرام . ولو أن القوم لم يتناقلوا على تعاقب الأعوام قصة الوحى التى علقت بتاريخ قبلتهم ، لقوّموا انحراف هذه القبلة وصححوا من موضعها ، إلا أن هذا المحراب لم يمسسه أحد من بعد عقبة بسوء ، وظل إلى يومنا هذا محل الإجلال والإكبار .

وعلى هذه الأسس كلها نستطيع أن نقرر أولا أن محراب عقبة كان مجوفا ، وما قبلته إلا هذه الجوفة التى كشفنا عنها من وراء لوحات الرخام والتى يراها الناس من خلال خرومه ؛ فهذا المحراب باق منذ سنة خمسين للهجرة « على بنائه إلى اليوم » . وعلى هذه الأسس نستطيع أن نقرر ثانياً أن محراب القيروان هذا ،

فيما نعرفه ، أقدم محاريب المساجد على الإطلاق . ونستطيع أن نقرر أخيراً ، أن ما نقله السيوطى من النهى عن المذابح ، لا ينصب على المحاريب ، وأن المحراب لم يكن بدعة فى المساجد . وسيتبقى علينا أن نبحث الشق الثانى من حديث السيوطى ، ذلك الذى يدعى فيه أن المحراب كان من شأن الكنائس .

٢

سبق لنا القول بأن علماء الآثار رضوا جميعاً بحديث السيوطى ، والواقع أنهم ذهبوا إلى أبعد مما ذهب الرجل إليه ؛ فجزموا بصحة روايته ، بالرغم من تشككه هو نفسه فيها ، وأقروا الرأى القائل باشتقاق المحراب من مذابح الكنيسة . ولم تقتصر حجتهم فى ذلك على ما جاء بهذا الحديث ، فإنهم يدركون أنه بمفرده لا يصلح اساساً لإقرار مثل هذه النظرية الخطيرة ، فالتجأوا إلى غيره من المؤرخين ، ونظروا فى رواية ذكرها السمهودى عن أعمال عمر بن عبد العزيز بمسجد المدينة ، ولكنهم فى هذا أيضاً لم يقدروا هذه الرواية على حقيقتها ، ونسوا أو تناسوا أن السمهودى أبعد عهداً بالرسول من السيوطى ، فانه توفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة وقيل إحدى عشرة وألف . والذى رواه السمهودى فى « خلاصة الوفى » أن الوليد لما أراد أن يعمر مسجد الرسول كتب إلى ملك الروم ليرسل إليه عمالا وفسيفساء ، فبعث إليه بأربعين من الروم ، وبأربعين من القبط ، وبأربعين ألف مثقال من ذهب وفسيفساء . ونقل السمهودى عن الواقدى أن عمل القبط كان بمقدم المسجد . واتخذ بعض المستشرقين هذه الرواية حجة للادعاء بأن الفضل فى إحداث المحراب المجوف فى مسجد المدينة يرجع إلى هؤلاء القبط دون غيرهم .

ولكن السمهودى لم يقل هذا ، فهو محض استنتاج . وكذلك ما ذكره السمهودى يحتمل الشك ، بل إن هذا الراوى نفسه يعترف بهذا الشك ، فهو يروى ثلاث روايات ، على أن إحداها صحيحة ، وقد تكون الرواية التى تمسك بها المستشرقون أشد هذه الروايات كلها مغالاة . فالرواية الأولى نقلها السمهودى عن يحيى بن قدامة بن موسى ، وهى التى ذكرناها ، والرواية الثانية نقلها عن ابن زبالة ، وهى أن ملك الروم بعث إلى الوليد « بأحمال من فسيفساء وبضعة

وعشرين عاملا » ، والرواية الثالثة أنهم كانوا « عشرة عمال » وقال عنهم ملك الروم إنهم « يعدلون مائة » .

فهنالك خلاف إذن فى عدد العمال ، وهنالك خلاف أيضاً فى جنسيتهم . وجدير بنا أن نذكر أن السمهودى يكاد ينفرد بذكر رواية القبط ، ولم يشاركه فى نقلها كثير من كبار المؤرخين والثقات الذين نقلوا تاريخ مسجد المدينة ودقائق تطوراته ، كابن سعد ، واليعقوبى ، والطبرى ، والبخارى ، وابن بطوطة وغيرهم .

وإذا افترضنا جدلا صحة رواية السمهودى ، وسواء أكان القبط يشتغلون فى بيت الصلاة ، أم فى بهو المسجد ، فانهم كانوا فعلة فحسب ، يشتغلون تحت إشراف رئيس مسلم اسمه صالح بن كيسان . وليس من الجائز أن فعلة من الأجانب يبدلون من نظام أول مساجد الإسلام وأكثرها اعتباراً . وأعود فأسجل مرة أخرى ما ذكره السمهودى نفسه من أن عمر بن عبد العزيز ، لما بلغ هدم محراب مسجد المدينة « جعل لا ينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً » . فمن المغالاة حقًّا أن نحمل نصوص التاريخ أكثر من طاقتها ، وأن نمزج الخيال بالحقيقة ، وأن نزج بالقبط فيما هم برءاء منه .

ويكفى كل هذا للدلالة على أن ما يستخلصه علماء الآثار المستشرقون من رواية السمهودى زائد عن الحد . فان اشتغال صناع فى بناء مقدس لا يؤدى حتما إلى إحداث عنصر فيه ، وخاصة إذا كان هذا العنصر رئيسيًّا فى نظام هذا البناء ؛ إذ أن المحراب ، كما يعترف المستشرقون أنفسهم ، أكثر مراكز المسجد تقديساً ، وأولاها بالاجلال ، حتى إن لفظ المحراب يطلق مجازاً على الصدر فى المجلس ، فيقال فى اللغة المحراب أشرف المجالس ، وهو حيث يجلس الملوك والسادات والعظماء . ولعله اختير فى الاسلام لما كان يعبر به فى الجاهلية عن أسمى المبانى ، تلك التى أقيمت خصيصاً للملوك .

ولنعد إلى حديث السيوطى ، وإلى مازعم فيه من علاقة المحراب بمذبح الكنيسة ، وإلى ما قد يصل بين العنصرين مبنى ومعنى . والثابت أن النقل والاقتباس فى الفنون وفى العمارة ، لا يتمان عفوا ، بل إن الحاجة هى التى تدفع الناقل إلى نقل ما يريد أن يستعين به فى قضاء حاجته ، والغاية هى التى ترسم للمقتبس طريق ما يرجو به تحقيق غايته . والغاية أو الحاجة فى هذا أهم من

الأصل ، والفكرة أبدى من الصورة . فالفكرة التى تنقل الشكل لغير ما وضع له ، أحق بالتقدير من الشكل نفسه . والثابت أيضاً أن لمذابح الكنائس وظيفة غير التى لمحاريب المساجد ، وأن هيكل الكنيسة وضع لغير ما وضع له محراب المسجد ، وأن كلا منهما يؤدى فى بنائه وفى موضعه وفى شكله غاية مختلفة ، متباينة ، منعدمة الصلة والموضوع بينهما . وإذا كان اختلاف الغاية لا يستبعد فكرة الاشتقاق ، فهو على الأقل يفرق بين الفضل فى الاقتباس ، والبداهة فى النقل . والمعروف قطعاً أن المعنى الذى يتركز فى هيكل الكنيسة أو فى مذبحها بعيد كل البعد عن احتمال إيحاء المعنى الذى يتركز فى المحراب .

أما فى مبناه ، فالمحراب يختلف شكلا عن هيكل الكنيسة . فهذا فناء كبير فى صدر الكنيسة ، يتسع على الأقل لمنضدة توضع عليها معدات الشعائر والمراسيم ، وفضاء كبير ، يذهب القائم بهذه الشعائر ويجىء فيه ، فى فسحة من الزمن والمكان . أما المحراب ، فهو جوفة فى حائط تضيق بغير الإمام ، بل تكاد تضيق بالإمام نفسه فى ركوعه وسجوده وجلوسه . فليس فى مبنى العنصرين ، المحراب والهيكل ، كما لم يكن فى معناهما ، صلة أو ارتباط .

ومع هذا فما الذى كان يدعو بناة المساجد أن يقفوا فى تأمل أمام هيا كل الكنائس ، فيرسموها ويحوروها ويصغروها ، ويخرجوا منها بناء قريباً لها أو بعيداً عنها ، وشيئاً لا صلة له بها وهو المحراب ؟ ما الذى كان يدعوهم إلى هذا وفى الصحارى التى عاشوا عليها مغارات توحى فتحاتها بأشكال المحاريب ، وفى الجبال التى اجتازوا بها ، فى الشام وسيناء وإفريقية ، فجوات كأنها محاريب قطعت فى جدران القبلة ، وفوق هذا وذاك كانت آثار الرومان والفرس تمتد وتنتشر فى البلاد التى فتحها العرب ، وكانت تعرض على بناة المساجد طاقات صغيرة ضيقة مجوفة لا تختلف فى شئ كثير عما اتخذته أشكال المحاريب ، وكانت هذه الطاقات فارغة تبين أوضاعها جملة وتفصيلا ، أو كانت تظل تمثالا واقفاً كأنه الإمام يتوجه إلى المصلين قبل أن يولى وجهه نحو القبلة للصلاة . بل إن الباحث قد يجد إلى هذا فى الكنائس المسيحية الأولى نفسها شكلا أقرب من هيا كلها إلى إيحاء شكل المحراب . غير أننا سنرى بعد قليل أننا لا نستطيع أن نجزم على ثقة ويقين بأصل معمارى أجنبى للمحراب ، وأنه ليس فى مراجع التاريخ ، وليس فى آثار العمارة التى سبقت الإسلام ، تفسير صحيح لشكله .

وكل هذا يدلنا على أن الحديث الذى أثبته السيوطى ، حديث ينقصه السند ، ويرفضه النقاش . وكذلك يدلنا على أن الحقائق تنقض ما ذكره السمهودى ، أو أن الشك ، على الأقل ، يحوم حول روايته . وإلى هذا فقد عاش هذان المؤرخان فى عصر جد بعيد عن الحوادث التى ذكراها ، والتى لم يشر إليها مؤرخ آخر غيرهما أقرب منهما إليها ، وأجدر منهما بالثقة ، بل ينقضها كثير غيرهما من المؤرخين . ولهذا فان الادعاء باشتقاق المحراب من الكنائس لا يقوم على حجة ثابتة ، ويفتقر إلى البرهان ؛ فالحقيقة تنكره قطعا ، والتاريخ يرفضه بتاتا .

أقول هذا فى ثقة لا يتطرق إليها فتيل من الشك ، وأقوله فى قوة تستند على دعيمة من البناء ، معنى لا مجازا ، دعيمة ظلت راكزة فى الأرض منذ أقيمت سنة خمسين للهجرة ، وحتى يومنا هذا ، وأقوله فى صدق أقره التاريخ منذ أكثر من ألف عام ، ولم توهنه بعد ، حجة جدية ، أو ادعاء قويم .

يخيل إلىّ أن ما انتهيت إليه من نقض حديث السيوطى ، وما قيل فى بدعة المحاريب ، يتطلب المزيد من البحث لإيضاح أمرين : يتصل أحدهما بنشأة حديث السيوطى ، ويتصل الآخر بنشأة المحراب نفسه .

والواقع أن الحيرة تأخذنا حقا فى إدراك السبب الذى حمل السيوطى او محدثه ، على خلق حديث مثل الذى شغلنا ، مع ما فيه من اختلال واضح ، وركاكة ثابتة . وأخشى أن يخرجنى البحث عن حلقة التاريخ وموضوع الآثار ، ويجرنى إلى دراسة فى فقه الدين والتفسير لا قبل لى بالمضى فيها . ولكنى أعتقد عن يقين أن تطورا فقهيا قد أصاب علماء الدين فى القرنين التاسع والعاشر الهجرى ، وأن أحوال مصر الاجتماعية والسياسية قد دفعت كثيرا منهم إلى نوع من الزهد ، ودفعت البعض الآخر إلى التحايل على إنكار صلاة الجماعة ، وإلى وضع الأحاديث وضعا يمكنهم من إثبات ما كانوا يسعون إليه ، أو يتزلهم مكانة أسمى من العلم بما كان زملاؤهم به جاهلين ، حتى إن أحدهم ، وهو ابن الحج ، ذكر فى « المدخل » ، أن المحراب أقل أجزاء المسجد جلالا ، وحرم على الإمام أن يأخذ مكانه فيه ، مع مافى هذا من خلاف لما أجمع عليه الناس من تقديس المحراب . والظاهر أيضا أن علماء الدين حينئذ ، بل فيما قبل ذلك بزمن طويل ، كرهوا المغالاة فى زخرفة المساجد ، فإنها فيما ظنوا تشغل المصلين عن الصلاة ،

وزخرفة المحراب تشغل الإمام ، وهذا أدهى وأكثر فحشا ؛ فلم ير السيوطى حرجا من أن يشبه المحراب بالمذبح ، من حيث بهرجهما ، ومن أن ينهى عن هذه الزخرفة ، ويجعلها ، كما رأينا ، من أشراط الساعة .

يتبقى علينا البحث فى أصل المحراب وفى فكرة إنشائه . ويجدر بى أولاً أن أستعرض رأيا فى اللفظ نفسه . فقد كان المحراب لفظاً يستعمله العرب قبل الإسلام للدلالة على بناء أقيم لملك من الملوك . وبهذا المعنى جاء ذكر هذا اللفظ فى أشعار امرئ القيس والأعشى وفى المفضليات . وهو فى القرآن يؤدى معنى آخر لا صلة له بالقبلة أو بالمسجد . وهو على كل حال مصطلح لجزء من البناء ، غرفة كان أو قصرا . وقيل فى كتب اللغة محراب المصلِّى مأخوذ عن المحاربة ، لأن المصلى يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه . وهذا تفسير ، إن أرضى علماء الدين ، لا يرضى المؤرخ وعالم الآثار . وقد ذكرت فى سياق الحديث عن محراب عقبة فى القيروان ، أنه حين حدد اتجاه القبلة ، ركز لواءه فى مكانها ، وأبان موضع المحراب من مسجده . فهل كان هذا اللواء حربة من الحراب ، فلما ركزها فى ذلك الموضع ، سماه القوم بالمحراب ، اشتقاقا من الحربة ، فسارت هذه الكلمة فى اللغة للدلالة على مركز القبلة ، لست أدرى أيجوز هذا التفسير لغة ، ولست أجزم بصحته ، وهو على كل حال موضوع بحث جدير بعناية علماء اللغة .

أما نشأة المحراب باعتباره عنصراً معماريًّا من بناء المسجد ، فترجع فى نظرنا إلى ابتكار أملته الضرورة ، مثله فى ذلك مثل المسجد نفسه ، الذى تكونت نظمه ، وتشكلت هيئته من واجبات الصلاة وفروضها وسننها ، ومن عادات العرب وطبيعة بلادهم . والمحراب ينسجم شكله مع شكل المسجد ، بل هو المركز الذى تتفرع منه خطوطه ، وتتشعب منه اتجاهاته .

وإذا كان التاريخ لا يرشدنا إلى المصدر الذى اشتق عقبة منه شكل محرابه فى القيروان ، ولم يبين لنا كيف ابتكر هذا الشكل ، فقد لانعدم حيلة فى استنباط الرأى وتحليل الفكرة .

والمحراب لا يقصد به الدلالة على اتجاه القبلة فحسب ؛ إذ لو كان الأمر قد اقتصر على هذا لاتخذ المحراب أى شكل آخر ، فلم يكن هنالك ما يدعو إلى

تجويفه ، وكان يمكن أن يستعاض عنه بأى شىء يكون منه ميزة للقبلة ، كقطعة من الحجر أو لوحة بارزة ، أو علم ، أو ستار ، أو جذع نخلة ، أو وتد مثل ذلك الوتد الذى كان يتكىء عليه الرسول فى محرابه الأول . ولهذا فليس فيما اتخذه المحراب من شكل مجوف غضاضة أو بدعة أو شرط من أشراط الساعة .

غير أنى أعتقد أنه كان هناك فوق هذا سبب قوى آخر دعا المسلمين إلى اتخاذ هذا الشكل المجوف ، أو إلى ابتكاره . فإننا نعلم أن المصلين كانوا ، وما زالوا ، يصطفون للصلاة فى المسجد صفوفاً مستقيمة موازية لجدران القبلة ، مؤتمين بإمام منهم ، ونعلم أن الإمام يقف منعزلا فى صدر المسجد ، ويحتل من بيت الصلاة لنفسه وحده ، صفاً طويلا بأكمله . فإذا أدركنا أن الصف الواحد فى مسجد القيروان يتسع لمائتين من المصلين وأن المصلين كان عددهم وافراً حتى كانوا يملأون بيت الصلاة وبهو المسجد وزياداته ، بل كان يضيق بهم كل هذا فيصطف الكثير منهم للصلاة خارج المسجد فى قارعة الطريق — إذا علمنا كل هذا أدركنا أنه كان من الحيف حقـًا أن يحتل الإمام صفـًا واحداً لنفسه ، ويدفع بمائتين من المصلين خلفه إلى صحن المسجد يؤدون صلاتهم فى غير مأوى من القيظ أو المطر أو البرد .

وفى رأينا أن هذا كله لم يغب عن عقبة وأصحابه ، وأنهم ابتكروا المحراب المجوف حتى يدخله الإمام فى صلاته ويتسع الصف الذى كان يحتله هو وحده لمائتين غيره من المصلين ، فينفذوا من العراء إلى بيت الصلاة ، ويستظلوا بعروشه .

فكرة المحراب هذه بسيطة بحيث لا تتطلب ، فيما أرى ، عناء البحث فى صلتها بالمذابح ، ولا يستقيم معها الحديث الذى طلع به علينا السيوطى عن « بدعة المحاريب » .

أحمد فكرى